كصديق موثوق به للعرب، وحذّر اسرائيل، أخيراً، اذا استمرت في سياستها، بأن ذلك «سيكلّفها غالياً»، وحمّل قادتها مسؤولية ذلك[٢].

هل كان في وسع موسكو اتّباع سياسة أخرى؟ لقد وجدت موسكو نفسها، بالفعل، مشدودة بين علاقاتها المستجدة مع واشنطن، في اطار الخط العام لسياسة الانفراج كما أرستها قمّة سان كليمانت، وبين الالتزامات التي فرضتها عليها تحالفاتها العربية، فكانت هذه الحرب بمثابة أول امتحان جدّي لسياسة الانفراج. أَلَمْ يقل الزعيم السوفياتي، ليونيد بريجينيف، في الثامن من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، «ان الانفراج تجمّد بسبب حرب الشرق الاوسط»؟[٣]. وما هو أوضح من ذلك اعلانه ان الاتحاد السوفياتي مصمّم على العمل من أجل تسوية عادلة وضمان أمن جميع دول وشعوب هذه المنطقة «الواقعة قرب حدودنا». وقيل، حينها، ان هذه هي المرة الاولى التي يربط بها الزعيم السوفياتي، علناً، من داخل الكرملين، ضرورات السياسة الخارجية السوفياتية بعضها ببعض[٤].

التوازن الاقليمي الجديد

ما هو أكيد ان الاتحاد السوفياتي كان يفضّل بقاء هذه الحرب ضمن حدود معيّنة، لجني بعض الفوائد. فقد استنتجت موسكو أمراً مفاده انه ما دام هنالك اختلال التوازن في المعادلة العربية ـ الاسرائيلية، ستبقى المنطقة حبلى بأخطار التوتّر وقابلة للانفجار في أي لحظة؛ فكانت الموافقة الضمنية على ضرورة تحسين المواقع العربية، من خلال تذكير الجانب العربي بأن كل قوة كبرى لها حلفاؤها، وان الدفاع عن تلك المواقع يمرّ عبر الاستمرار في هذا التحالف[٥].

هكذا نفهم لماذا انصبّت الجهود الدبلوماسية السوفياتية على وقف اطلاق النار. فمن جهة، اكتشفت موسكو، منذ ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، قدرة سوريا ومصر على الهجوم والصمود؛ فعلى الجبهة السورية، كانت اسرائيل قد استعادت، في هجومها المضادّ، هضبة الجولان، وباتت تهدّد بمزيد من التقدّم شمالاً نحو العاصمة دمشق. وفي سيناء، كان المصريون متمركزين، بقوة، في مواقعهم الجديدة المهدَّدة. ومن جهة أخرى، واصلت الولايات المتحدة الاميركية سياسة تدخّلية، كان هدفها تعزيز الموقف الاسرائيلي في ساحات القتال. ففي اليوم عينه، أعلن وزير الخارجية الاميركية، هنري كيسنجر، في مؤتمر صحافي، ان «الشرق الاوسط قد يصبح، بمرور الوقت، ما كان عليه البلقان في اوروبا قبل العام ١٩١٤، أي منطقة تتميّز بالصراعات المحلية بقوة دافعة سوف تعمل على جرّ الدول النووية العظمى الى المواجهة»؛ وحذّر العرب من ان الولايات المتحدة الاميركية ستقيم جسراً جوياً ضخماً لنقل العتاد الحربي الى اسرائيل[٦]. ولم تكد تمضي سوى ليلة واحدة على ما ذكره الوزير الاميركي، حتى بدأت الاجراءات التنفيذية لتزويد اسرائيل بالسلاح.

هنا، يمكن رصد ثلاثة ملامح واضحة، على الأقل، لهذه العملية. الملمح الاول، هو السرعة التي تمّت بها العملية؛ والثاني هو الحجم الضخم لهذه الامدادات؛ والثالث هو نوعية هذه الامدادات. وتتفق جميع التفسيرات على ان الجسر الجوي الاميركي الى اسرائيل كانت له انعكاسات كبيرة على مجرى الحرب؛ اذ لم يكن للعبور الاسرائيلي المضاد، على الجبهة المصرية، ان ينجح، في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر)، لو لم تكن الاسلحة الاميركية في طريقها الى اسرائيل. كذلك الحال، فان بعض الامدادات، مثل صواريخ «تاو» المضادة للدبابات، وصواريخ مافريك (جو ـ أرض)، استخدمت على نطاق واسع في الايام الاخيرة من الحرب، وزادت في امكانات انزال الهزيمة الكاملة بالجيش